صادق الشافعي*

شريف الحسيني: لاعب الكمان الأول

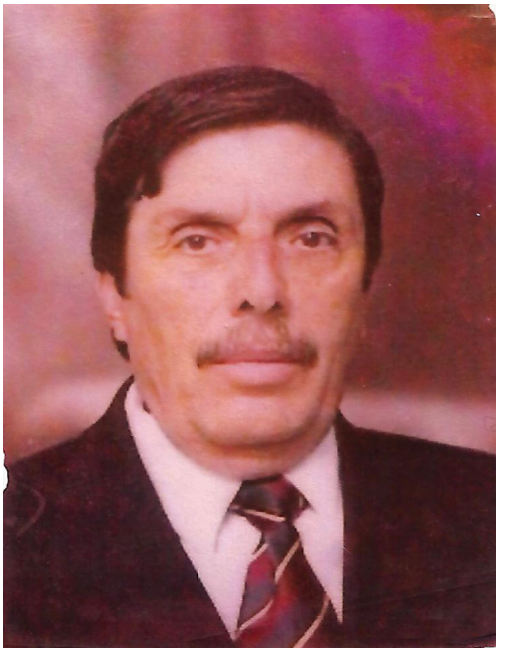

خواطرنا الخاصة

وجّهت في ٢٠١١/٣/٩، إلى الصديق شريف الحسيني الرسالة الإلكترونية التالية:

أرسل لك مادة كتبتُها منذ شهور عن غسان بدون أي مناسبة ولا أي هدف ولا بطلب من أحد. لم أنشرها . أنت الأقدر في الحكم على المادة . أريد رأيك وقلمك الأحمر.

ووصلني في اليوم نفسه (٢٠١١/٣/٩) ردّه برسالة إلكترونية جاء فيها:

جميل جداً، لكن انتبه لبعض الأخطاء المطبعية. من جهتي كتبت وأنا في المستشفى قبل ثلاثة أشهر خواطر عن أصدقاء ثلاثة: غسان (كنفاني) وناجي (العلي) ومحمود (درويش) .....المهم فيما كتبتَ وما كتبتُه أنا أن نسجل للتاريخ ما لهؤلاء من مكانة إنسانية ناهيك بكل علاقاتنا بهم. **ليست تلك دراسات أو مقالات بل خواطرنا الخاصة.**

وعلى الرغم من فرحي الشديد بدرجة التقدير "جميل جداً" التي منحني إياها، فإنني هاتفته مباشرة بعد استلام رسالته مصراً على انتظار ملاحظات "قلمه الأحمر". ووعد شريف بذلك، لكن شريف لم يف بوعده، فالمرض الشديد ألمّ به، وكان الموت أسبق.

وفي ٢٠١١/٤/٤ فارق شريف الحسيني الحياة في عمّان التي أتاها من الضفة الغربية للعلاج بعد تدهور حالته الصحية هناك.

ولم أكن أدري، ولم أقدّر أن تواصلي معه في ٩ آذار/ مارس سيكون الأخير، إذ كأنه في آخر رسالة إلكترونية منه لي كان يوجهني إلى أن

* كاتب وصحافي فلسطيني.

أكتب عنه، وكيف أكتب عنه:

"ليس دراسة أو مقالة، بل خواطر إنسانية" كما كتب. وهذا ما سأفعله.

عرفت شريف منذ أواسط الستينيات في القاهرة، وتوثقت صلتي به عندما بدأت بالانخراط في هيئات الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وكان قد سبقني إلى ذلك في موقع متقدم عن موقعي. وكانت تلك الفترة، فترة مصر عبد الناصر، هي فترة النهوض والازدهار على جميع المستويات، الوطنية والثقافية منها بالذات، وكانت تلك فترة الحلم المتسع على امتداد الشعارات الكبرى من الوطنية إلى القومية العربية، إلى تحريرفلسطين، إلى العدالة الاجتماعية والتحرر من الاستعمار، وغيرها. وكان الطلبة من جميع الأقطار العربية، ومن كثير من دول إفريقيا وآسيا، يجدون في مصر ملاذهم في تحصيل التعليم العالي بشكل مجاني، وفي بناء ذواتهم وتجاربهم، وفي التعبير عن قضاياهم والنضال من أجلها. وكانت أعدادهم كبيرة جداً (فعلى سبيل المثال، بلغ عدد الطلبة الفلسطينيين في سنة ١٩٦٧ فقط، أكثر من ٢٤,٠٠٠ طالب منتظم).

وقد تواصلت علاقتي مع شريف وظلت، ببعدها الشخصي والإنساني، وثيقة وحميمة حتى في الأوقات التي فرضت علينا الأوضاعُ التباعدَ الجغرافي، واختلاف المواقع. وهذا ما يمكّنني من الادعاء أنني أعرف شريف، وأعرف سجاياه وميزاته معرفة وثيقة وعن قرب، عدا أنني تعلمت منه ، فكثيراً ما كنت أناديه "يا معلمي".

شريف هو ابن عائلة الحسيني المقدسية العريقة بنضالاتها وأمجادها وتراثها الوطني والملأى بالزعماء الكبار مثل موسى كاظم، وعبد القادر، والحاج أمين، وغيرهم، وهو الابن الثاني للشهيد خالد الحسيني الذي عهدت إليه الهيئة العربية العليا، بعد فترة من استشهاد ابن عمه القائد عبد القادر، تولي قيادة قوات الجهاد المقدس في فلسطين، وقد جرى اغتياله عشية الثاني من آذار/ مارس ١٩٥١ على يد قاتل مأجور هرب إلى المهجر منذ سنة ١٩٥٢. وروى شريف أنه في أثناء إحدى جولاته الإعلامية إلى فنزويلا في سنة ١٩٧١، فوجيء ذات يوم بشخص يحضر إلى مكان إقامته فيركع أمامه ويحلف أغلظ الأيمان أنه بريء من دم والده، وأنه يطلب المغفرة، إذ ظن أن شريف كان يسعى وراءه.

بدايات النضال

بدأت علاقة شريف بالعمل الوطني المنظم في بداية شبابه عندما كان طالباً في الجامعة الأميركية في بيروت حين انخرط في حركة القوميين العرب منذ سنة ١٩٥٥، وكانت تُعرف آنذاك بجماعة نشرة "الثأر". وقد استمر فيها عضواً ثم كادراً أساسياً.

وحين انطلقت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في كانون الأول / ديسمبر ١٩٦٧ كامتداد طبيعي لفرع فلسطين في حركة القوميين العرب، كان شريف واحداً من كادراتها القيادية الأساسية، وعضواً في هيئتها القيادية الأولى لبعض الوقت. ولم تكن تلك الحقيقة معروفة إلاّ على نطاق ضيق لطبيعة الأوضاع آنذاك، ولأن شريف لم يكن من هواة الظهور والبروز.

ويعود إلى شريف الفضل الأول في أنه، في الأعوام الأخيرة، كان هو مَن بادر وعمل بإخلاص ودأب شديدين، ولمدة طويلة، على تجميع، ثم فهرسة وتبويب وأرشفة وإجراء حفظ فني لوثائق حركة القوميين العرب ووثائق الجبهة الشعبية خلال عقدها الأول.

عُرف شريف في المجال العام من خلال دوره المميز في قيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين، وقد بادر مع آخرين إلى تأسيس فرع للاتحاد في لبنان احتل فيه موقع نائب الرئيس في هيئته

الإدارية. وحين تبرع الشهيد غسان كنفاني لفرع الاتحاد بروايته "أرض البرتقال الحزين"، كان شريف هو مَن تابع إصدار الطبعة الأولى منها.

أصبح شريف بعد ذلك عضواً في المجلس الإداري للاتحاد العام، وهي الهيئة القيادية الوسيطة في الاتحاد، والتي تنتخب قيادته اليومية الأولى "الهيئة التنفيذية". وفي تموز / يوليو ١٩٦٣ شارك في دورة المجلس الإداري الذي عُقد في القاهرة، تلك الدورة التي أنهت سيطرة البعثيين على قيادة الاتحاد، وشكلت هيئة تنفيذية موقتة ترأسها تيسير قبعة واحتل شريف فيها موقع النائب الأول للرئيس: "نائب الرئيس للعلاقات الخارجية"، الأمر الذي جعله ينتقل إلى الإقامة في القاهرة حيث مقر الاتحاد.

وجاء المؤتمر العام الرابع للاتحاد، والذي عُقد في نهاية شباط / فبراير وبداية آذار / مارس ١٩٦٤ في مدينة غزة، فكرس قيادة حركة القوميين العرب للاتحاد التي جددت لتيسير قبعة ولشريف الحسيني في موقعيهما نفسيهما.

وأبدع شريف في موقعه الثاني في قيادة الاتحاد، وشكّل مع تيسير والآخرين فريقاً متميزاً في نجاحه وعطائه وإنجازاته على مستوى بناء الاتحاد وفروعه، ثم على المستوى الوطني، إذ أصبح الاتحاد ركناً أساسياً ومبادراً من أركان العمل الوطني الفلسطيني، وأيضاً على المستوى الدولي، فأصبح للحركة الطلابية الفلسطينية حضورها وفعلها المؤثر في الحركة الطلابية والشبابية العالمية. وبذلك كان الاتحاد أول هيئة فلسطينية تحتل موقعاً مؤثراً في منظمة ديمقراطية دولية هي اتحاد الطلاب العالمي، الأمر الذي نتج منه طرد إسرائيل منها.

ويذكر أن شريف وضع كتاباً مهماً عن تجربة الاتحاد، وبالذات على المستوى الدولي، عنوانه "مواجهة النشاط الصهيوني على الصعيد الطلابي"، وقد صدر عن مركز الأبحاث الفلسطيني في سنة ١٩٦٨.

وكان شريف يتمتع بشخصية محببة، حلوة المعشر، قريبة إلى النفس، وبعيدة عن الذاتية وحب الظهور والاستعراض، مع قدرة متميزة على التخطيط والبرمجة والتنظيم والمتابعة، فضلاً عن قدرة متميزة على كتابة مداخلة، أو خطاب وطني لمناسبة معينة، أو صوغ مشروع قرار، أو إنجاز بحث علمي وكتابة دراسة غنية جادة وموثقة.

وقامت شخصية شريف على ركيزتين أساسيتين: الأولى، منظومة قيمية راسخة مركزها الأخلاق، أمّا الثانية، فتمثلت في التزام ثابت بقضية شعبه ونضالاته. وقد تشكلت بواكير هذه الشخصية في مناخ العائلة، ثم صُقلت وطُوّرت في مناخ العمل الوطني حين انخرط في مطلع شبابه بحركة القوميين العرب التي كانت الأخلاق من أهم أسسها واهتماماتها.

لاعب الكمان الأول

لم يكن شريف يرى نفسه في الموقع الأول، ولم يكن يسعى له أو يرتاح فيه، لكنه كان الأكثر ملاءمة في الموقع الثاني، وخصوصاً إذا كان الأول ذا حضور قيادي عالٍ، وصاحب موقف وقرار، ويؤمن بعمل الفريق. حينها كان شريف يبدع ويُخرج أفضل ما لديه، ولهذا لقّبه صديقنا غانم "لاعب الكمان الأول".

ولاعب الكمان الأول في الأوركسترا هو "قائد" الفرقة الموسيقية الآخر، الموجود خلف الستارة، في التمارين، وهو يعرف المقطوعات معرفة قائد الأوركسترا إياها، ويترجم أفكار القائد وأسلوبه في كيفية تنفيذ العمل. إنه ضابط إيقاع الوتريات والمسؤول مباشرة عن تناغمها عقلاً واحداً وقلباً واحداً. وهو الدبلوماسي الذي يحل تباينات، بل نزاعات أفراد الفرقة المتنوعين. إنه أمين سر القائد، والقائد الثاني الذي يستطيع في أي لحظة أن يكون العازف المنفرد حين يصمت الآخرون وتستريح عصا قائد الأوركسترا الصغيرة.

أمّا في السياسة فهو الشريك في القيادة الذي نادراً ما تراه في الصف الأول؛ لا يصرح ولا يلتفت وراءه.

كنا معاً في القاهرة حين قامت حرب ١٩٦٧، وكانت الحماسة والثقة بالنصر تملآننا كبقية الناس، حتى إن بعض طلبة فلسطين أخذوا يشكلون مجموعات للعودة بالسيارات براً إلى بلداتهم بعد تحريرها وهزيمة إسرائيل.

وحين استجابت إحدى الجهات الرسمية المصرية لطلب اتحاد الطلاب بقبول أعداد من طلبة فلسطين كمتطوعين وإلحاقهم بالموقع الملائم على جبهات القتال، كان شريف واحداً من أول بضعة مئات من المتطوعين الذين لم يكن أحد منهم تدرب عسكرياً.

وفي مكتب منظمة التحرير، الذي كان في شارع رمسيس آنذاك، انتظرنا، من الصباح حتى المساء، ولثلاثة أيام متتالية، الباصات التي ستقلنا إلى الجبهة. وفي كل يوم كان عدد المتطوعين يزداد، لكن لا الباصات وصلت، ولا المتطوعين التحقوا بأي جبهة قتال، وبقية قصة حرب ١٩٦٧ معروفة.

وبعد هزيمة ١٩٦٧ مباشرة بادر مئات من الطلبة الفلسطينيين الذين يدرسون في مصر، ومعهم بعض الطلبة العرب، إلى قطع دراستهم والالتحاق بتنظيمات الثورة الفلسطينية المسلحة في بدايات انطلاقها وتوهجها. وترك شريف أيضاً، القاهرة، والتحق بموقعه الذي حددته له "الجبهة الشعبية". صحيح أنه لم يلتحق بقاعدة عسكرية، ولا تسلل إلى الأرض المحتلة كما فعل مئات من أولئك الطلبة، إلاّ إنه التحق بموقعه الذي حُدّد له.

لقد كان انتماء شريف إلى العمل الوطني الفلسطيني بحاضنته القومية، مبكراً، وكان أصيلاً، وظل مستمراً وثابتاً، وبلا صخب أو ضجيج، تماماً كشخصيته. وهو كان من القلائل الذين لم يغيروا خيارهم، أو اتجاههم العام، بغض النظر عن الموقع.

وإلى ذلك، فإنه ظل من القلائل الذين لم يفقدوا ثقتهم بالنصر حتى في أصعب الأوقات وأحلك الأوضاع.

فبعد عدوان ١٩٨٢ على لبنان، وخروج قوى الثورة الفلسطينية وتشتتها إلى غير منفى، وخلال نقاش من النوع الذي كان سائداً آنذاك بشأن الأسباب والنتائج، قال شريف ببساطة شديدة وقناعة راسخة: "المهم ماذا سنفعل غداً وكيف سنواصل." كان دائماً يتجه إلى المستقبل.

وفي السبعينيات، ولفترة امتدت ما يقرب من عشرة أعوام، شكلنا ما يمكن تسميته فريق عمل متجانساً ومتنوع الكفاءات والخبرات، وكان عملنا كله في الإطار الديمقراطي والعام. ومع أن الأمور في تلك السنين كانت واضحة ومباشرة، إلاّ إن الأوضاع كانت صعبة، والخطر كان محدقاً، لكن الحلم كان أفقاً مفتوحاً عريضاً، ندياً وعفيفاً، وكانت الإرادة بمستوى الحلم.

وضمن هذا الفريق كان شريف يحتل الموقع الثاني، "عازف الكمان الأول"، برضا واقتناع وبترحيب بقية أعضاء الفريق. لكن الأهم أنه شكل طوال تلك الأعوام، روح الفريق ونسمته الطرية ومكمن السر، عدا كونه مستراح الشكوى. كما كان حلقة الوصل وحلاّل الاحتكاكات بين أعضاء الفريق حين تثور النفوس الشابة، أو تبرز خلافات أو مشاحنات على قلّتها وبساطتها ومحدوديتها إن لجهة الموضوع، أو لجهة مدتها.

في بداية سنة ١٩٩٤ التقيته في عاصمة عربية بعيدة بعد فراق دام بضع سنين فرضته أوضاع أدت إلى تغيير المواقع والأمكنة، وفوجئت باختلاف روحية شريف عن تلك التي أعرفها.

لقد كان في حالة أقرب إلى الإحباط، ويكررالحديث عن احتمال الموت والقلق إزاء المكان الذي سيُدفن فيه.

وكان واضحاً في ثنايا الحديث أن هذه الحالة سببها خيبات كثيرة، جرّاء ضيق في العيش، وقسوة في الأوضاع، والعزلة عن الأهل والأصدقاء والمحبين، وربما عدم القناعة بمكان العيش وعدم الارتياح للموقع والدور.

لكنني بعد مدة لم تطل على هذا اللقاء سعدت جداً حين علمت أن الشهيد فيصل الحسيني، وهو ابن عم شريف ومجايله وصديقه ورفيق دربه في بدايات انخراطهما في العمل الوطني، قد نجح في إعادته إلى الأردن كي يعمل باحثاً في مؤسسة عبد الحميد شومان. ثم كانت الخطوة الأهم حين عاد شريف إلى الضفة الغربية مستفيداً من عقد المجلس الوطني في غزة في سنة ١٩٩٦. وأخيراً حط رحاله في القدس مسقط رأسه، حيث انخرط في العمل بحماسة مضاعفة في "بيت الشرق" مع الشهيد فيصل.

وفي سنة ١٩٩٧ التقيتة مجدداً حين شارك مع فيصل ووفد من القدس في نشاط جماهيري أُقيم في الأمارت، وكان هدفه دعم القدس وصمودها. وقد نجح النشاط بأكثر مما كان يأمل فيصل، وكان فرحاً بذلك كطفل حين التقيته مع شريف.

وسعدت أكثر حين وجدت أمامي شريف كما عرفته دائماً، "شريف بتاع زمان"، مرحاً ومبتهجاً ومتفائلاً ومتوهجاً بالراحة النفسية وبالأمل.

لم أكن بحاجة إلى ذكاء كبير كي أستنتج أن شريف عاد ليكون "عازف الكمان الأول" مع قامة عليا من وزن فيصل الحسيني بكل إبداعه ونبله، وأن فيصل مرتاح جداً لوجود شريف إلى جانبه، وأنه كما يقال "رامي حموله" في أمور الإدارة والتنظيم والمتابعة والتوثيق على أكتاف شريف الذي حملها بكل قناعة واقتدار. بل يمكن القول إن شريف أصبح بمثابة "رئيس أركان" بيت الشرق.

يا إلهي كيف أعاد الزمن دورته وكرر ثنائية الشهيدين عبد القادر الحسيني ـ خالد الحسيني أيام قوات الجهاد المقدس وبطولات القسطل، من خلال ثنائية ولديهما فيصل وشريف؟

ولا يمكن الحديث عن شريف من دون الحديث عن "حاجّتيه": والدته الحاجة سعاد / أم وليد، و"الحاجة" زليخا جدته لأمه. فقد ظلتا تعيشان مع شريف الذي بقي عازباً طوال السنين التي رافقته فيها سواء في القاهرة أو بيروت، واستمر كذلك بقية عمره. كنت كثيراً ما أبيت عندهم في شقتهم بدعوة من شريف، وكنت أسعد كثيراً بذلك، إذ كان في الحاجّتين من الطيبة والأصالة ودفء الضيافة وفائض الأمومة ما يعوضني عن دفء العائلة والشوق إلى الأهل والبيت.

والحاجة زليخا بالذات كانت من صلب الأرستقراطية الحسينية، ومن "راس النبع" فيها كما يقال، وكانت في السنين التي أتحدث عنها قد تخطت الثمانين من العمر. ومع ذلك فإنها كانت تمتلك شخصية مرحة ومنفتحة وعصرية بمقاييس تلك السنين، وكانت مضيافة ومرحبة، تحب زيارات أصدقاء شريف، وتسعد إذا جاء أحدهم بخطيبته أو حتى صديقته. وكانت تتابع الأخبار السياسية ولها آراء واضحة، وبعضها جريء تجاهر به في الأحداث الجارية وتناقشه مع أصدقاء شريف وزواره. فضلاً عن ذلك، فإنها ما كانت تجلس أو تسير إلاّ "مصلوبة"، مستقيمة القامة بلا انحناء في ظهرها كما هي حال مَن هم في عمرها.

وبعد، هل هذه جميع خواطري وكامل مخزوني عن شريف الحسيني الذي كان له من اسمه نصيب: شريفاً وحسينياً في عطائه لقضية وطنه التي آمن بها؟ بالتأكيد لا.

فقد عشنا معاً، ومعنا أصدقاء كثر، عمراً لم يكن يُعد بالأشهر، أو يُحسب بالأيام والسنين، بل بالأحداث والمواقف والمخاطر والعيش دائماً في قلب الحدث، وهو ما يمكن كتابة الشيء الكثير عنه.

ويبقى في النهاية قدر الله وقضاؤه، ويبقى الموت هو الحقيقة المطلقة الوحيدة في الكون، وتبقى لشريف وعن شريف أحلى وأغنى وأنبل الذكريات والخواطر.

ومَن مثل شريف هم ملح الأرض، الذين يستحقون مع الكلمة دمعة تطفىء لوعة وتروي أرضاً علّها تنبت خصباً وكرامة وشرفاً وقمحاً وزهراً. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بالاشتراك مع النادي الثقافي العربي ـ بيروت

فلسطين

وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل

مجموعة مقالات ومحاضرات، ١٩٥٧ – ٢٠٠٩

وليد الخالدي

٤٧٩ صفحة ١٥ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الحكم المصري في فلسطين

١٨٣١ – ١٨٤٠

خالد محمد صافي

٤٢٣ صفحة ١٤ دولاراً